# رحلة إلى بعض المراسي المغربية (سنة 1910)

## للشيخ عبد الحفيظ الفاسي

## تقديم وقراءة

**نفيسة الذهبي**

كلية الآداب ــ القنيطرة

تندرج رحلة الشيخ عبد الحفيظ الفاسي في إطار الشهادات التاريخية المنطلقة من الوصف والمشاهدة وتسجيل الارتسامات. ويمكن تمييز خصائص هذه التجربة المدونة في كونها رحلة جامعة لمختلف الفوائد أراد مؤلفها أن يجعل منها «ديوان علم»، ولذلك نقرأ من خلالها مايهم إشارات المجال، وتراجم الرجال، وتقديم صور تاريخية عن كل مركز بالإضافة إلى كثير من الإفادات الأدبية ونصوص الإجازات وغير ذلك. كما نقرأ في ثنايا أسلوبها مجموعة من التعاليق التي تنم عن حس تاريخي، وعن رغبة في التعرض لذكر أحوال المغرب والمغاربة كواقع عاشه المؤلف إلى جانب رجال طبقته قبيل توقيع عقد الحماية بزمن يسير.

### الشيخ عبد الحفيظ الفاسي ت 1383 هـ / 1964 م

عبد الحفيظ بن محمد الطاهر بن عبد الكبير بن المجذوب بن عبد الحفيظ بن

---

(*) يرجع تاريخ هذه الرحلة إلى سنة 1910 أما تدوينها فقد تم في سنة 1911 وتقع النسخة التي وقفنا عليها في 173 صفحة من الحجم المتوسط وهي نسخة الخزانة العامة عدد 4401 د. ويظهر أنها مجرد مسودة لم يتمكن الشيخ عبد الحفيظ الفاسي من إعادة ترتيبها وصياغتها فهي كثيرة التصويبات، والهوامش الاستدراكية، وبها عدة صفحات ومعلومات مكررة وأحياناً مرتبكة الترتيب حيث يبدأ الحديث في صفحة لينتهي في صفحات سابقة لها. أما مقدم هذه الرحلة فقد سطر في أول صفحة من المخطوط مايدل على الاستحسان والاستفادة من مطالعة هذا الكتاب بقوله : «بهذا المجلد النفيس رحلة تاريخية مفيدة للمرحوم القاضي عبد الحفيظ... وهي غير مطبوعة ولاتزال في المبيضة الأصلية وهي من أفيد كتبه للمؤرخ المغربي».

أبي مدين بن أحمد بن مَحمد بن عبد القادر بن عليّ بن الشيخ أبي المحاسن الفاسي ولد بمدينة فاس عام 1296 هـ / 1879 م وبدأ حياته التعليمية بزاويتهم بالقلقليين حيث حفظ **القرآن الكريم** وسمع عدداً من التفاسير(1) وسمع **الموطأ وصحيح البخاري** وبعض **صحيح مسلم والسنن** وغيرها على والده، كما تعلم على يد عدد وافر من العلماء من بينهم عمه أبو جيدة بن عبد الكبير الفاسي الذي وصفه بالعالم الراوية الخطيب، وخاله الشيخ المحدث الصوفي عبد الكبير بن محمد الكتاني والعلامة الرحالة الراوية عبد الله بن إدريس السنوسي الفاسي والعلامة محمد ابن أحمد الودغيري الغياثي، ومحمد بن عبد القادر الشاوي، ومحمد بن عبد الرحمان القندوسي، ومحمد التهامي جنون، وأبو شعيب بن عبد الرحمان الدكالي وغيرهم كثير.

فقد أورد في معجم مشايخه ماينيف على المائة أستاذ وشيخ ممن أخذ عنهم العلم أو من تبرك بهم وبأسانيدهم العالية في الرواية. وقد حظي الشيخ عبد الحفيظ بعدد من الإجازات العامة وكانت له عناية واضحة بهذا الجانب فهو حريص على توثيق مروياته في الحديث من طرق مغربية ومشرقية. وقد ذكر بعض الإجازات المشرقية التي تحصلت له مكاتبة من بينها إجازة الفقيه بخيت المطيعي المصري وهو أحد حفاظ المذهب الحنفي والشيخ بدر الدين المغربي شيخ الحديث بدمشق وغيرهما ونقل في فهرسه عدداً من نصوص تلك الإجازات.

تولى الشيخ عبد الحفيظ الفاسي خطة القضاء الشرعي في فاس زهاء عشرة أعوام ثم كان من أعضاء المحكمة الجنائية العليا. وآخر ماوليه هو القضاء في مدينة سطات وقد انقطع عن العمل في فترة استقلال المغرب فعكف على الكتابة في منزله بالرباط إلى وفاته.

ويعتبر فهرسه أو معجم شيوخه من أشهر مؤلفاته وهو يحمل عنوانين هما : **«رياض الجنة في تراجم من لقيت أو كاتبني من الجلة أو المدهش المطرب بأخبار من لقيت أو كاتبني بالمشرق والمغرب»**.

---

(1) من التفاسير التي عينها تفسير الواحدي الصغير وتفسير الجلالين وأشار إلى أنه درس على يد والده وأن مكان الدرس هو موضع مدفنه قرب قبر الشيخ عبد القادر الفاسي بالزاوية الفاسية، رياض الجنة، ص 33.

وقد طبع هذا الفهرس سنة 1350 هـ / 1931 م بالمطبعة الوطنية بالرباط في جزئين ويعد من الفهارس المغربية المتأخرة(2). وإلى جانب معجم الشيوخ وقفنا على عدد من تصانيف المؤلف منها :

ــ **الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث المسلسلات**، المطبعة الوطنية الرباط. ب، ت.

ــ **الترجمان المعرب عن أشهر فروع الشاذلية بالمغرب**. مخطوط خ.ع 4400 ر.

ــ **تأليف في ذكر الطرق الصوفية بالمغرب**. مخطوط خ.ع 4407 ر.

ــ **الموجود من مبيضة في البيت الفاسي**. مخطوط خ.ع 4405 ر.

ــ **كناشة** خاصة بالرباط(3).

## I ــ مقدمة الرحلة :

تكتسي الرحلة طابعاً موسوعياً من حيث السياق الوصفي ومحاولة إعطاء الخبر سمات تتناسب مع ميولات معرفية متنوعة؛ والمؤكد هو أن نية مؤلفها من وراء توضيحاته واستطراداته وتراجمه لرجال العلم والإدارة والسياسة كانت هي إثارة الانتباه والدعوة إلى تجاوز ما أسماه بالغفوة التي جعلت الوطن ميداناً فارغاً من الرجال فتسابق فيه غيرهم. وهو يحاول من خلال تأليفه أن يطرح تساؤلاً عن

(2) اتبع الشيخ عبد الحفيظ في فهرسه طريقة التبويب حسب حروف المعجم ذاكراً أسماء الشيوخ ونسبهم ومؤهلاتهم العلمية ومؤلفاتهم ورحلاتهم ووفياتهم وغير ذلك مما توفر من الأخبار فضلاً عن التعرض ضمنياً إلى الحياة التعليمية بالمغرب في حدود مستهل هذا القرن وخاصة المقروءات ومناهج التدريس.

(3) ترجم للشيخ عبد الحفيظ الفاسي خير الدين الزركلي في **الأعلام** وأشار إلى عدد من مؤلفاته التي لم نقف عليها مثل :

**كتاب التاج في ذكر من اسمه محمد من ملوك الإسلام** وضعه عندما ولي السلطان محمد ابن يوسف عرش المغرب.

**وأشهر مشاهير العائلات المغربية** الذي نشر بعضه في جريدة **السعادة**.

**وأربع رسائل في إبطال المهدوية**

**وشذور العسجد في ذيل عناية أولى المجد بذكر آل الفاسي بن الجد.**

**وفلسفة تاريخ دول المغرب** وهو عبارة عن رسالة.

الأسباب ويتبنى دعوة لحفز الهمم والبحث عن دواعي الانحطاط، والعمل على خدمة مصالح الوطن التي ضاعت بسبب إهمال المغاربة وكسلهم وابتعادهم عن التجديد. وقراءة الرحلة تشعر القارىء بشكل واضح بأن مؤلفها يحمل نوعاً من الحسرة والاستياء ويعبر عن هموم جيل كان بدون شك شاعراً لما يحدث وغير قادر على تجاوز مستوى الدعوة أو الاستنكار في صمت.

## II ــ مجال الرحلة :

تحدث الشيخ عبد الحفيظ عن خمسة مواقع أو مراسي، حديثاً اختلف من حيث السرد والمادة باختلاف الزمن الذي قضاه في كل مدينة ونوع اللقاءات والأنشطة التي قام بها، وسوف نعمل على تقديم قراءة وصفية لهذا المجال الجغرافي حسب الترتيب الوارد في الكتاب.

ــ **المهدية** : يصف المؤلف موقعها عند مصب نهر سبو ويقف عند خراب ديارها وانعدام ما يذكر من عمارتها فيما عدا المسجد الجامع الذي يعود بناؤه إلى سنة 1092 هـ والذي يعتبر أحد الشواهد على عظمة الدولة الإسماعيلية.

ويستعرض في حديثه تاريخ المدينة التي ذكر أنها من بناء الرومانيين أو الفينيقيين مشيراً إلى أن ماذكره صاحب **نشر المثاني** من أن بانيها هو المهدي الشيعي مؤسس الدولة العبيدية غير صحيح، وكذلك ماذهب إليه غيره من مؤرخي الأوربيين الذين يرجعون بناءها إلى أيام يعقوب المنصور الموحدي ثم يتتبع هذا الجانب ليخلص إلى أن التاريخ لم ينقل لنا شيئاً سابقا مما يستحق الذكر إلا عندما تهافت الأجانب على المغرب بعد احتلال مدينة سبتة (1415 م).

وبعد لمحة من الاحتلال الأجنبي وقيام حركة المجاهد العياشي السلوي يصل إلى القرن 17 م ليذكر فتح المولى إسماعيل وتحصينه لها بالسور الموجود حتى ذلك الحين وكيف عمل على حراسة هذا المرفأ وأنزل فيه حامية من الجيش السوسي. لكن المدينة عرفت تراجعاً وإهمالاً بل طالها الانحطاط في كل شيء. وبهذا الصدد نقرأ قوله : «... من له إلمام بعلم التاريخ وكان يعلم ماكانت عليه هذه المدينة وتاريخها القديم ثم يصلها الآن فيراها على الحالة التي وصفت يزداد تحققاً بأننا معشر المراكشيين قوم كسالى لاأهمية لنا في إحياء مجدنا السابق..» (ص 19) وهو

يعمم مثل هذه النظرة على مدن المغرب التي ظلت على حالتها منذ القرون السابقة والتي لم تعرف الوسائل الحديثة فيما عدا الموانىء البحرية التي يوجد بها الأجانب[4].

ويخلص بالنسبة لمرفأ المهدية إلى أنه يحتاج إلى بعض الإصلاح لكي تتحول إليه تجارة كل من الرباط والعرائش بل إنه يمكن أن يصبح مرسى لمدينتي فاس ومكناس.

**الرباط** : يبدأ حديثه عنها بوصف حصانة مبانيها وجمالها ويشبهها بالاسكندرية من حيث الاتساع وحسن التقسيم واستقامة الشوارع وإتقان البناء.

وتبعاً لنفس النهج يقدم نبذة عن تاريخ الرباط، ويتوقف طويلاً عند ذكر السكان فقد انتقل لسكنى القصبة التي بناها يعقوب المنصور الموحدي غالب أهل شالة لكن حضارة المدينة وعمارتها ازدهرت بعد استيطان الجالية الأندلسية بها. وقد قسم سكان الرباط إلى أقسام فبعد أهل شالة تأتي العناصر البربرية والعربية النازلة من مختلف الجهات ثم أهل الأندلس وفي القسم الرابع يذكر بيوتات من أهل فاس انتقلوا إليها للاتجار وهو يعرف بكثير من أسماء الأسر وبأنسابها.[5] ومن النقط التي أثارها في حديثه عن مرفأ الرباط عند مغادرته للمدينة بحراً صعوبة مصب نهر أبي رقراق وتراكم الرمال وإهمال الحكومة أو الجمارك لهذا الجانب فقد ركب زورقاً صغيراً يجره زورق بخاري للوصول إلى الباخرة الراسية على بعد معين من المصب وتطلب ذلك الركوب وقتاً وجهداً بل أثار لدى المؤلف نوعاً من الهلع والخوف بسبب تلاعب الزورق وتلاطم الأمواج.

ــ **الدار البيضاء** : يقدم المدينة في إطارها الجغرافي فهي قائمة في بسيط من

---

(4) حول ثغر المعمورة يمكن الرجوع إلى الدراسة الجامعية التي أنجزها الطالب عبد الحميد المودن تحت عنوان «ثغر المعمورة من البداية إلى تحريره من طرف المولى إسماعيل سنة 1092 هـ / 1681 م.د.د.ع، القنيطرة، 1998-1999 حيث ترد التفاصيل حول المصادر والتاريخ والتسمية والكثير من الاستنتاجات وإن كان الطالب لم يتناول مادة هذه الرحلة من ضمن مصادر عمله.

(5) حول تاريخ مدينة الرباط والتعريف بكثير من رجالها يمكن الرجوع إلى دراسة الأستاذ ع. الفاسي، **أعيان مدينة الرباط في نهاية القرن 19 وبداية ق 20، 1830-1912 م**، منشورات جمعية رباط الفتح، مطابع الأطلس، الرباط 1996.

الأرض، فسيحة مستقيمة الشوارع نظيفة بالنسبة لطنجة، قدرة بالنسبة للرباط أما هواؤها فهو مكدر للغاية وماؤها عديم الصحة ولذلك تعبث فيها الأمراض في كثير من الأحيان.

ويتوقف المؤلف هنا عند أمر وجده من المفارقات فأحد عمال الدار البيضاء أحب أن يصلح المدينة وينير شوارعها أيام السلطان مولاي عبد الرحمان لكن وشاية بلغت السلطان جعلته يكتب لعامله ويزجره ويقول له : «دع عنك شأن الدار البيضاء فهي عندنا بمنزلة دوار من دواوير الشاوية» وكان مفاد الوشاية أن العامل يريد أن يزين المدينة ويحسنها للأجانب وقد استقبح المؤلف هذا السلوك واعتبره جهلاً وهمجية ولم ينس وصف مستوى مباني المدينة وكيف ازدادت عمارتها بعد الاحتلال الفرنسي واتسعت تجارتها وأشار إلى نشاط الميناء وأنه كان يصدر الحبوب والقطاني والصوف والحيوانات ومنه تأتي واردات أهملها السكر والشاي والمنسوجات الأوربية والمشروبات وفي هذا الجانب يميز سيطرة اليهود على مرافق التجارة وتجنسهم بجنسيات مختلفة واستنزافهم لثروة البلاد بينما الأهالي من المسلمين وهم أخلاط من قبائل شتى لاحيثية لهم بسبب جهلهم وكسلهم وجلهم يحترفون حرفاً ثانوية. أما العلم فلا يذكر في هذه المدينة ولا من يطلبه أو يعلمه فيما عدا المدارس الأجنبية الابتدائية أو بعض كتاتيب القرآن.

ويعود المؤلف إلى مسألة التاريخ على عادته ليسجل أن المدينة غير مستحدثة وأنها من بناء القرطاجنيين أو الرومانيين وأنها كانت في صدر الإسلام حاضرة بسيط تامسنا وقبائل برغواطة وقد عرفت بأنفا ووصفها لسان الدين ابن الخطيب في مقامات البلدان الزاهية إلا أن سيطرة البرتغاليين عليها تسببت في تهديمها ثم أعيد تحصينها وبناؤها وسميت بالدار البيضاء وبقيت في حوزتهم إلى أن استرجعها السلطان أبو محمد عبد الله بن المولى إسماعيل سنة 1154 هـ. وفي 3 رجب عام 1329 هـ احتلتها دولة فرنسا وهنا يقول المؤلف : «ولاحاجة بنا إلى الدخول في تفاصيل هذا الاحتلال وأسبابه فالقراء مازالوا يعرفون ذلك» (ص 88) لكنه يستدرك في (ص 89) تحت عنوان «احتلال دولة فرنسا لها» ويقدم حديثه بنوع من الحرص والحذر مخافة أن تفهم تصريحاته على غير حقيقتها إذ يقول : «قبل أن يخط يراعي في هذه المسألة ولو حرفاً أقول إني لاأكتب هنا لأجل الاعتذار

عن الشاوية ولا لأجل تبرير أعمال فرنسا ولا لبيان الحق في أي الجانبين بل أكتب على سبيل سطر من التاريخ أسرد فيه ملخص المسألة تخليداً لها في بطون الدفاتر وأترك الحكم لغيري».

ـــ **طنجة** : أو إسكندرية المغرب حسب تقديم المؤلف الذي تتبع نبذة من تاريخها منذ ماقبل الإسلام وتوقف عند أهم صفحات المراحل الإسلامية منذ الفتح مبرزاً أهمية موقعها على البوغاز وخاصة أثناء عبور المجاهدين أيام المرابطين والموحدين كما أنها ـــ أيام الموحدين ـــ مثلت إحدى العمالات الكبرى وأصبح مرفأها مركزاً لتوجه الأساطيل ودارا لإنشاء الآلات الحربية، ولم ينس مراحل الاضطرابات في التبعية عندما تأرجحت مدينة طنجة بين الاعتراف بسيادة الدولة المغربية أو الخطبة باسم أبي القاسم العزفي حاكم سبتة حيناً والدولة الحفصية حيناً آخر فضلاً عن محاولات استبداد أحد ولاتها في القرن السابع الهجري. وقد بقيت طنجة تحت سيادة الدولة المرينية منذ أن افتتحها يعقوب بن عبد الحق إلى أن سيطر عليها البرتغاليون. وقد تعرض لحالتها وبناياتها وعمارتها التي تجددت بعد استرجاع المولى إسماعيل لها سنة 1090 هـ. أما حين زيارته لها فقد أصبحت مركزاً سياسياً في المغرب ففيها مقر السفراء والقناصل ومركز التلغراف اللاسلكي المخزني، والسلكي الأجنبي إلى جانب إدارة الأشغال العمومية الكبرى في المغرب.

وينتقل المؤلف إلى العنصر الثاني حسب نمط كتابته وهو المتعلق بالسكان فهو يقدم إشارات كمية حول عدد المسلمين واليهود والأجانب كما يتتبع الأنشطة وخاصة التجارية التي احتكرها الإسرائيليون الذين تجنسوا بجنسيات مختلفة «واستولوا على موارد الرزق واستنزفوا ثروة البلاد» وهو إذ يتتبع هذا الجانب يبدي ملاحظاته في كل مقام فسبب تقدم اليهود في نظره هو تسابقهم إلى اكتساب العلوم العصرية إذ وجد فيهم الأوربيون مايناسب الاضطلاع بالوظائف والترجمة والكتابة وقد أكد أن المدارس الإسرائيلية في طنجة يعود تأسيسها إلى خمسين سنة خلت وأنها سهلت أسباب المهاجرة على الإسرائيليين وقد قارن بينهم وبين المواطنين المسلمين فالأولون أهل جد ونشاط في العمل ونظراؤهم بلغوا في الخمول والكسل والجهل إلى درجة ليس بعدها. بالإضافة إلى أن عدداً كبيراً من المسلمين غادروا المدينة بسبب غلاء الأسعار وارتفاع أثمان البيوت ومزاحمة اليهود. أما الأجانب

فقد قدم بشأنهم أرقاماً وبين أن أغلبيتهم من الإسبان الذين يتحملون القسط الأكبر من المسؤولية في غياب النظافة وحقارة المباني.

ونقرأ في هذا الشطر من الرحلة إشارات متنوعة فهناك وصف وحديث عن البوغاز وعن دار النيابة والسفراء حيث يعرف بمهامهم ومهام المفوضين السياسيين. كما حمل حديثه إشارات أخرى كوجود كنيسة إسبانية، ومسرح أو «التياترو».

ــ **العرائش** : يعود تاريخها إلى العهد الروماني أو الفينيقي ولو أن الآثار لاتؤكد ذلك وأهم ما اعتمده في الترجيح هو وجود مدينة تعرف باسم «شموس» في الجهة الشرقية وحسب استقرائه فالكلمة محرفة عن «شمس» وهو اسم صنم للفينيقيين أو الرومانيين ويعود إلى ضبط أوفى في المراحل الإسلامية حيث كانت العرائش في عمالة يحيى بن إدريس شأنها شأن مدينتي أصيلا والبصرة ثم يشير إلى الاحتلال البرتغالي وإلى تسليم محمد الشيخ المامون السعدي للمدينة إلى القوات الإسبانية التي احتلتها في 4 رمضان سنة 1019 هـ إلى أن استعادها السلطان المولى إسماعيل.

وحول السكان نجد أرقاماً وإحصائيات مثل ماورد في باقي المرافئ وكان الوصف الطاغي على ملاحظاته هو سيطرة طابع البداوة واحتراف المغاربة لحرف بسيطة بينما استأثر تجار اليهود وبعض الأجانب وأهل فاس بأكبر وأهم أصناف التجارة.

ويقف المؤلف عند أثر التراجع العسكري فهناك قلعة عسكرية هي أقرب إلى الخراب، ومدافع كثيرة من الوجهة البرية والبحرية لكنها قديمة لاترد هائما ولا تطارد عدواً أما نشاط المرسى فيتمثل في استقبال الواردات وهي في هذا الباب أشهر من طنجة ومن أهمية المرفأ ودوره تتحدد أهمية مشاريع الإصلاح التي تحملت قسطاً منها شركة ألمانية ويتمثل في إصلاح مدخل المرسى وجعل قنطرة على الوادي، وقد عبر أهل العرائش في مراسلاتهم لنواب الدول الأجنبية في طنجة عن رغبتهم في إثارة الانتباه إلى أهمية هذا الثغر، وإلى ضرورة تزويده بالوسائل الحديثة وخاصة المواصلات التلغرافية.

**III ــ الإشارات التاريخية :**

لايخفى الحس التاريخي عند المؤلف بل إن القارىء يستأنس عنده هذا الميل

من مقدمة رحلته إلى خاتمتها فهو لاينقطع عن تسجيل الإشارات الخاصة بالأحداث التاريخية القديمة التي أوردتها مصادر شتى أو الأحداث التي عاشها وذكر مصادر معلوماته عنها وخاصة الجرائد المغربية مثل جريدة السعادة أو الصحافة الأجنبية كما أنه كان يطالع مؤلفات المغاربة والأوربيين وقد اخترنا تقديم بعض الأمثلة من الرحلة :

**1) ثورة الدباغين بفاس أيام مولاي الحسن وموقف الزاوية الفاسية :**

يذكر هذه الحادثة كنوع من الاستطراد أثناء ترجمة جده أبي المواهب عبد الكبير بن عبد الرحمان الفاسي، فعندما وقع الخلاف بين السلطان مولاي الحسن وأهل فاس حول مسألة المكس وبلغ الأمر حد المقاتلة منع الشيخ عبد الكبير الفاسي أهل حومة القلقليين من الدخول فيما دخل فيه غيرهم من أهل فاس بخصوص الاعتراض المشار إليهم فهمّ الدباغة بقتال أهل حومة القلقليين ونهب الزاوية الفاسية وكل من ينتمي إليها. وبلغ الأمر حد إلقاء القبض على مقدم الحومة الحاج محمد بنيس حينما وجد منفرداً ولكن أبا جيدة الفاسي (عم المؤلف) تمكن من افتكاكه من يدهم. ويربط بهذا الحدث ما عرفته الزاوية الفاسية من اكتظاظ بعدما لاذ بها عدد كبير من أهل المدينة. وعندما اشتد القتال وانكسر جيش السلطان في جهة باب عجيسة ووقع الهجوم على فاس من جهة قصبة أبي الجنود ونهبت بعض الحوانيت أو أحرقت خاف الشيخ عبد الكبير الفاسي مغبة أن يختلط الأمر أو كما جاء في السياق «خاف المترجم على المدينة وأن يختلط اليابس بالأخضر فصعد إلى دار المخزن لطلب الصلح والأمان من السلطان». ويضيف أن أهل فاس حاولوا منعه من الوصول إلى حضرة السلطان بل حاولوا قتله للحيلولة دون ذلك إلا أنه نجح في مسعاه بواسطة صديقيه الوزيرين الصدر موسى بن أحمد ووزير الشكايات أبي عبد الله الصفار فرجع صحبة الوزير الصفار ومعهما مصحف السلطان وسبحته معلنين لأهل فاس بأمن السلطان على شرط التوبة والرجوع إلى الطاعة.

تأتي هذه الرواية في إطار إبراز أحد أدوار الزاوية الفاسية ورجالها المتأخرين في فض النزاعات والتوسط بين أهل فاس والسلطة وماكان يتم إثر ذلك من مكافأة وإنعامات ملكية وهو ما حدث مع الشيخ عبد الكبير الفاسي الذي نراه يشارك

في حل قضية كبرى بمبادرة خاصة وقد أكد المؤلف أن السلطان قد قدر دوره في إطفاء نار الفتنة.

نستنتج من هذا الحدث أمرين :

* أن الحديث عن الزاوية الفاسية يحمل سمات الحضور في حومة القلقليين ويظهر أن هناك استمراراً في النهج العام وهو محاولة المحافظة على المكانة التي يبرزها المؤلف تاريخياً ولو أن الأمر لم يكن سهلاً كما يبدو من حديثه عن وجود فئة معارضة حاولت قتل الشيخ قبل أن يقابل السلطان.

* أن الحديث عن الزاوية الفاسية في سياق تراجم المؤلف يؤكد أن حضورها الأهم ظل يتجلى في القيام بالدور العلمي وفي إنتاج العلماء وتكوين الطلبة فعدد من العلماء الذين قابلهم المؤلف في المراسي المذكورة هم خريجو هذه المؤسسة كما أن علماءها لازالوا يحتلون مكانة الصدارة. فالشيخ المذكور عمل خطيباً في القرويين ثم عينه السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان مدرساً في الزاوية الفاسية في المكان الذي كان يدرس فيه الشيخ عبد القادر الفاسي ثم أنعم عليه نفس السلطان بالرتبة الأولى من مراتب العلماء «وكانت إذ ذاك عزيزة المنال والقاضي مولاي محمد لايسمح بها إلا بعد طول الممارسة» (ص 43). وإلى جانب الدرجات العلمية فإن أهل فاس انتخبوه رئيساً للوفد الذي حمل البيعة لجلالة الملك مولاي الحسن. وينتدبه مولاي الحسن للوقوف على أصول الحكومة في سجلماسة وإحصاء العقارات والأملاك. كما أمره بعد رجوعه من هذه المهمة بالسفر إلى منطقة سوس لقضاء بعض المهام وأصحبه بعدة كتب لعمال المناطق التي يزورها وسمح له بحيازة كل الهدايا والصلات وقد عاد من هذه الرحلة بأمول طائلة.

2) **حادثة احتلال الدار البيضاء** : ينطلق المؤلف من الحديث عن أول ما أثير في هذا الشأن وذلك عندما أعطى المخزن المغربي حق بناء مرفأ الدار البيضاء لإحدى الشركات بغاية إصلاحه واقتضت المصلحة مد فرع للسكة الحديدية إلى خارج المدينة لنقل الحجارة لكن أشراف الشاوية استاءوا من هذا العمل فهيجوا الخواطر ونادوا بالجهاد وكمنوا للقطار صبيحة يوم الثلاثاء 20 جمادى الثانية عام 1325هـ فهاجموه وقتلوا من كان يقل وعددهم ثمانية أشخاص إثنان من الفرنسيين وثلاثة من الإيطاليين ومثلهم من الإسبان. هذا هو السبب كما قدمته

جرائد فرنسية أما بعض الصحف الألمانية فقد قالت أن سبب المذبحة هو إطلاق أحد الفرنسيين النار على أحد المواطنين بغير ذنب ولما حدثت هذه الحادثة وعجزت الحكومة عن ردع الشاوية وحفظ الأمن طلب نائب قنصل فرنسا هناك من حكومتها المحلية أن ينزل بعض الجنود الفرنسيين لحماية القناصل وبقية الأجانب.

ويضيف الكاتب بأن فرنسا بعد احتلالها للمدينة أعلنت أنه احتلال مؤقت إلى أن يستتب الأمن(6).

3) **دار النيابة بطنجة** :يعرف بدار النيابة فهي من أهم وظائف الحكومة الشريفة، وعملها المخابرة مع سفراء الدول في المسائل السياسية والعناية بالأمور القنصلية والشرعية أحياناً وهو يستغل فرصة حديثه للإشارة إلى أنواع السفراء وإلى بعض بنود مؤتمر الجزيرة الخضراء وإلى الوضع الدولي لمدينة طنجة.

4) **ضعف الأسطول** : و لم يغفل الإشارة التاريخية إلى ضعف الأسطول المغربي وإلى أن تراجعه كان إيذاناً بالانحطاط بل هو أول حلقة في سلسلة تاريخ الانحطاط السياسي كما تشهد الأحداث وقد نص على ذلك في آخر حديثه عن مشكلة العرائش وتتلخص في أن الأسطول المغربي كان قوياً أيام السلطان سيدي محمد ابن عبد الله، ففي عام 1178 هـ كان يجوب البحار ويأسر من وجد من مراكب الأجانب إذا لم تكن المهادنة مقررة.

وفي أيام المولى عبد الرحمان بن هشام قامت محاولة عام 1243 هـ بغاية إحياء البحرية التي أغفلها سلفه المولى سليمان وقد جمع ما وجد متفرقاً من بقية أسطول جده وأنشأ مايتمم نقصه وأمر أهل الرباط وسلا بالخروج «للتطواف بالسواحل لحمايتها» وفي هذا الإطار أسر المغاربة مركباً نمساوياً لم تكن مع قائده ورقة المرور واعتبروه غنيمة حسب مقتضيات إحدى المعاهدات المغربية الفرنسية. لكن النمسا ردت على ذلك الأسر وهاجمت مدينة العرائش وقذفتها بالقنابل ثم احتلت العساكر

---

(6) أنجز الأستاذ علال الخديمي بحثاً جامعياً حول هذه الحادثة تحت عنوان «حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية 1907 ـــ 1908، د.د.ع، الرباط، 1984 في جزئين. وقد عمل الباحث على تقديم هذه الحادثة في إطارها التاريخي المناسب وخصص لها الباب الثالث حيث ناقش مختلف المعلومات والروايات وأبرز كيف استغلت هذه الحادثة للهجوم على السيادة المغربية وكيف كانت نتائجها وحجمها السياسي.

المكان المعروف بالمقصورة وأوقدوا النار في مراكب السلطان وعندما هجم عليهم أهل العرائش ومن جاورهم ولم ينج منهم إلاّ اليسير استاءت دولة النمسا وواجه المغرب مشكلة عويصة لولا تدخل إنجلترا لدى السلطان بحضور سفيرها إلى جانب سفير النمسا سنة 1246 هـ حيث انتهت القضية بما يرضي النمسا مع أن الحق كان مع أسطول المغرب «لكن الحق مع القوة» ففي أيام المولى عبد الرحمان لم تعد لقوة المغرب البحرية أية قدرة تواجه بها أساطيل دول أوربا لأن المولى سليمان كان قد أسقط البحرية وأغفل أمرها ونظراً لعمق هذا الحدث تاريخياً فإن المولى عبد الرحمان لم يكن في وسعه أن يفعل شيئاً.

وما يقال عن البحرية يقال عن الجندية كما ظهر في حادثة مدينة وجدة سنة 1260 هـ. ويرى المؤلف أنه أمر طبيعي لأن «الهمجية لاتقابل النظام» (ص 168) وطالما لمح إلى مسألة النظام فقد أعجبته طريقة الضبط الفرنسية عندما نزل في ميناء الدار البيضاء ووجد موظفاً مكلفاً بمراقبة المسافرين واعتبر أن الإتقان هو أحد أسباب التفوق الأوربي (ص 64).

## IV ــ السمات الفكرية ونماذج من تراجم الإعلام :

يتوقف المؤلف في كل مرفأ عند تعداد المدارس الفرنسية وتمييز ماتوفر من مراكز التعليم المغربي ويحرص على التعريف بأهل العلم إن وجدوا وإظهار أسفه عند انعدام وجودهم أو قلة عددهم.

ويمكن تمييز نوعين من الإشارات في هذا السياق فهناك الترجمة والتعريف العام برجال الفكر والأدب والسياسة، وهناك الإشارات الخاصة بالسمات الفكرية والوضعية التعليمية في المغرب بوجه عام. وبخصوص النقطة الثانية نلاحظ أن سوق المعرفة كان كاسداً ففي الدار البيضاء مثلاً يتحدث عن عدم وجود أحد يشار إليه بالعلم والخير والصلاح «إلا السيد أبا شعيب بوهيضورة الدغوغي وهو منزو في بيته لايعبأ به كمصحف في بيت زنديق» (ص 81) فهناك زهد في العلم وهو أمر عام لايقتصر على مدينة الدار البيضاء؛ ففي العرائش يقارن بين كثرة علماء المدينة في القرن المنصرم وبين صورة كساد العلم وعدم رغبة أهل البلدة فيه فهم لايعرفون حتى مايجري حولهم سياسياً ولايتتبعون الحوادث الوطنية بل إن المؤلف بحث عن أحد أعداد جريدة السعادة طيلة مقامه فلم يجد إليه سبيلاً. وفضلاً عن

ذلك فأهل العرائش يخافون إدخال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية خوفاً من تجنيد فرنسا إياهم في المستقبل و لم يفته أن يعلق على هذا الاعتقاد ويؤكد أن طلب العلم فضيلة وأن فرنسا لم تكن تفعل ذلك بالمتعلمين.

فالسمات الفكرية توحي بوجود نوع من الركود يقابله المؤلف في كل مناسبة بحيوية العنصرين الأجنبي واليهودي بل إنه يضع عنواناً في صيغة تساؤل : «هل يمكن لنا أن نسترجع مجدنا» ويقول في بابه إن تراجع المعرفة أدى إلى حالة الانحطاط والتقهقر مادياً وأدبياً وسياسياً وأن الرجوع إلى ماكان عليه السلف من التوحيد الخالص والتمسك بالكتاب والسنة وفتح المدارس والتضلع في العلوم العصرية أمر لايمنعه ديننا الحنيف بل يشجع عليه. فاكتساب العلوم كان مؤشراً في مرحلة ازدهار الحضارة الإسلامية والابتعاد عن اكتساب المعرفة أدى إلى التراجع وكان آخر ماختم به مؤلفه هو الدعوة إلى مواكبة الحضارة الحديثة.

و لم يغب تسجيل بعض الإشارات الإيجابية في الميدان الثقافي فالشيخ عبد الكبير الفاسي عندما عاد من المشرق في المرة الثانية قصد السلطان مولاي الحسن وطلب منه طبع شرح الشيخ مرتضى على **الإحياء** وإرسال نسخ منه إلى الحرمين الشريفين وكان الشرح موجودا بخزانة القرويين فأذن السلطان بطبعه وبعث منه إلى الحرمين مائتي نسخة، كما أن الرحلة لم تخل من إفادات علمية فقد كتب المؤلف الأربعين حديثاً لأبي زكريا النووي، وروى الأحاديث بسند واحد بشكل مختصر للسيد الفقيه العربي الطنجاوي قبل أن يغادر الدار البيضاء، كما أنه نقل نص إحدى الإجازات تتميماً للإفادة.

أما المترجمون فهم من ذوي المناصب العليا والهامة في الدولة أو من العلماء المشاركين في الحياة التعليمية أو القائمين بالوظائف الشرعية وغيرها. و لم نتقيد في تقديم أهم الأعلام بالترتيب الوارد في الرحلة :

*** محمد بن عبد السلام المقري وزير الخارجية :**

السياسي الشهير، كان والده محل ثقة السلطان مولاي الحسن والمكلف ببناءات ومستفادات فاس وبالأملاك المخزنية بها. وقد قام المترجم إلى جانب والده بتدبير بعض هذه الأمور إلى أن عينه الوزير أحمد بن موسى ناظراً على بناءاته وقصوره،

ثم عين أميناً للصائر المخزني وكانت هذه المهمة آنذاك في مستوى الوزارة. وقد كان محمد المقري من جملة أعضاء الوفد المغربي في مؤتمر الجزيرة الخضراء وشارك في سن ضوابط مشروع الإصلاح مع جماعة من نواب الدول بطنجة ثم عين وزيراً للمالية، كما عين رئيساً للبعثة المغربية التي توجهت إلى باريس وأسند إليه المولى عبد الحفيظ نظارة الخارجية مع بقائه في وزارة المالية ومع هذا كان يدير أشغال وزارة ثالثة هي الأشغال العمومية بالإضافة إلى اختياره في القيام بمهام ظرفية كسفارته إلى مدريد لحل مشكل الريف مع إسبانيا وقد زاد مقام المقري بعد زواج كريمته بالسلطان.

والمؤلف يستعرض في هذا السياق كثيراً من التفاصيل ويضيف مايهم ارتساماته الخاصة عن المترجم بعد أن لقيه وتكررت لقاءاته به وقد وصفه في ختام حديثه عنه بقوله : «هو من أعظم رجال المغرب وأشهرهم... وهو القابض اليوم على زمام سياسته يدير كفتها بذكائه..».

*** محمد الأمراني النائب السلطاني بالدار البيضاء :**

أبو عبد الله محمد بن مَحمد الحسني الأمراني، نفاه السلطان محمد بن عبد الرحمان مع أخويه إلى مكناسة لحوادث سياسية أشار إليها المؤلف بدون تعيين ثم استقدمهم بعد ذلك وصاهرهم ببناته. وقد حظي محمد الأمراني عند السلطان المذكور ثم عند ولده مولاي الحسن بمرتبة هامة وخاصة في المشورة عن أحوال البربر وسياستهم كما ولاه قيادة الجيش وقد أبعده الوزير أحمد بن موسى الذي استأثر بالسلطة. أما السلطان المولى عبد الحفيظ فقد عينه خليفة بالدار البيضاء وأصبح الواسطة بين المخزن وجيش الاحتلال وقد كرر المؤلف ذكر كفاءته وسمعته ووجاهته في المنطقة.

*** محمد الجباص النائب السلطاني الأفخم**

ممن تعلموا في المدارس الأجنبية فقد بعثه السلطان مولاي الحسن إلى أنجلترا فأتقن اللغة وبعض العلوم العصرية ليعين في قسم المهندسين ويقوم بدور الترجمان الخاص للسلطان، ثم كلف بترتيب الضرائب على المواشي وغيرها على الضوابط الأجنبية كما عين عضواً في سفارة وزير الخارجية إلى فرنسا وانتدب للذهاب إلى الجزائر قصد الوقوف على النقط المتنازع عليها في الحدود «فعقد المعاهدة الشهيرة

التي مازال صداها يتردد في الأندية السياسية» ثم أسندت إليه وزارة الحربية فعاد إلى المغرب وترك نجله ينوب عنه في الجزائر مع أعضاء الوفد الساهر على تنفيذ المعاهدة المشار إليها. وقد حاول محمد الجباص من موقعه إحياء قسم المهندسين وإخراج الرواتب الكافية للعكسر غير أن السلطان المولى عبد العزيز لم يعر آراءه أهمية تذكر لأسباب لم يفصح عنها مؤلف الرحلة وبعد مشاركته في القضاء على فتنة الريسوني عين مقرراً للنائب الحاج محمد الطريس بدار النيابة بطنجة مع بقائه في وزارته ثم عين نائباً مستقلاً بعد وفاة محمد الطريس.

### * الباشا محمد الجباص :

نجل النائب السلطاني السابق الذكر ناب عن والده في رئاسة الوفد المغربي في الجزائر ثم ناب عنه في وزارة الحربية. وقد أسندت إليه ولاية طنجة في بداية عهد المولى عبد الحفيظ ولقب «باشا» وهو لقب يعطى لكل من يحكم على ولاية طنجة. وبعد ذلك عمل حاكماً على مدينة الدار البيضاء.

### * عبد الله بن سعيد السلوي :

عامل مدينة سلا وقد أضيفت له أيام مولاي الحسن أمانة ديوان طنجة كما عين عضواً بدار النيابة، ثم انتدب لمباشرة بعض المصالح مع إسبانيا في سبتة. وقد عزل أيام المولى عبد العزيز عن ولاية سلا وبقي بدار النيابة وكان ممن استقبلوا الإمبراطور الألماني غليوم II.

### * عبد الله الفاسي

نائب وزير الخارجية الأفخم عبد الله بن عبد السلام بن علي ــ ابن عم المؤلف ــ اشتهر ذكره من بين علماء عصره وهو الذي نظم جواب علماء فاس عن استغاثة أهل السودان بمولاي الحسن. وقد قام بمهمة الخطابة والتدريس ثم عين كاتباً للدولة الحفيظية بوزارة الداخلية ونقل بعد ذلك إلى وزارة الخارجية كما كان ينوب عن السلطان في أجوبة السفراء على خطبهم. وقد كان عبد الله الفاسي عضواً ثانياً في سفارة السيد محمد المقري إلى باريس وبعد رجوعه واعتباراً لما أظهره من مقدرة في تلك السفارة كافأه السلطان بتعيينه قاضياً ثانياً بمدينة فاس.

* **محمد المكي بن عليّ : قاضي الرباط :**

من العلماء المشهورين في العلوم النقلية والعقلية، تجاوزت تآليفه الخمسين كتاباً إلى جانب قدرته على قرض الشعر. تبادل معه المؤلف الإجازة أثناء زيارته للرباط وأورد صيغة إجازته له.

* **محمد بن الطالب الفاسي : قاضي طنجة الأفخم**

أحد أبناء عمومة المؤلف كانت له مشاركة حسنة في العلوم وعمل مدرساً وقائماً بالإمامة بجامع القرويين إلى أن عين قاضياً بالصويرة ومراكش ثم نقل إلى قضاء طنجة في المحكمة الشرعية.

* **عبد الكبير بن عبد الرحمان المجذوب بن عبد الحفيظ الفاسي**

جد المؤلف وأحد العلماء المبرزين في عصره عين مدرساً بالزاوية الفاسية بالقلقليين. وقد أنعم عليه السلطان محمد بن عبد الرحمان بالرتبة الأولى من مراتب العلماء، وعند مبايعة السلطان مولاي الحسن انتخبه أهل فاس رئيساً للوفد الذي حمل البيعة لجلالته، وكان له دور في حل النزاع داخل فاس أثناء ثورة الدباغين ــ كما أشرنا ــ وقد استعرض المؤلف كل دقائق حياة جده وعرف بمراحل تعليمه وأسماء شيوخه ومؤلفاته.

* **عبد الله بن إدريس السنوسي :**

العلامة الرحال المحدث من العلماء المرموقين، عينه السلطان مولاي الحسن من جملة العلماء الذين يحضرون مجلسه في **صحيح البخاري** وأنعم عليه بعدة صلات أقره عليها المولي عبد العزيز بعد تولية العرش وساعده على التحول إلى طنجة التي استوطنها إلى آخر حياته.

* **أبو حامد العربي الزبدي :**

السياسي المحنك، من بيت عريق في المجد والرياسة كان والده أبو عبد الله محمد ابن الطاهر من وجهاء أهل الرباط. وقد عمل المترجم بالتجارة ثم عين محل والده أميناً على الدفاتر ومحاسبة الأمناء وقد كان من بين المتضررين من سياسة الوزير أحمد بن موسى.

* **أبو العباس أحمد الزبدي :**

العالم الأديب الشاعر صنو أبي حامد السابق ذكره وأحد المعتنين بالآداب والمذاكرة والمباحثات العلمية قضى معه المؤلف أوقاتاً كثيرة وتبادلا معاً عدداً من القصائد الشعرية التي أورد نصوصها في الرحلة.

* **عبد السلام بن محمد زروق :**

مؤقت الجامع الكبير بالعرائش تلقى تعليمه بفاس على والد المؤلف وعلى عدد من شيوخها أمثال أبي العباس بناني، وابن الحاج ومحمد جنون وغيرهم وحظي بعدد من الإجازات. وقد أشار إلى ثناء شيوخه الفاسيين عليه وكفاءته العلمية. التقى به المؤلف في آخر حياته بالعرائش وطلب منه الإجازة العامة عن شيوخه المتقدمين.

وبالإضافة إلى هؤلاء وردت إشارات خاصة ببعض الفرنسيين مثل قنصل فرنسا بالرباط وهو أحد المستشرقين الذين اعتنوا باللغة العربية وبقضايا العالم الإسلامي وخاصة الدولة العثمانية. وسفير فرنسا بطنجة.

وإلى جانب التراجم المذكورة التي سجل المؤلف معلوماتها مباشرة جاء التعريف بأبي عمرو الخطابي وابن بطوطة أثناء الحديث عن رجال مدينة طنجة.

**خـلاصـة :**

أهم مايستخلص من قراءة هذا الكتاب هو أن هناك مادة تاريخية مفيدة؛ فالرحلة تعكس مجموعة من القضايا وتقدم عدة إشارات يمكن أن تفيد من زوايا مختلفة حسب طبيعة التناول. لكنها من جهة أخرى تعكس نظرة المؤلف للأمور فصياغته لتلك المعلومات جاءت وفق المنهج الذي رآه ملائماً لتبليغ آرائه وأفكاره وهنا يمكن أن نتحدث عن ملاحظتين تستحقان الاعتبار وهما :

* صراحة المؤلف : أكد على هذا الجانب منذ البداية فهو يتجاوز مرحلة الصمت ويحاول أن يصل إلى حقائق ما وقف عليه من أحداث، وآثار، وردود فعل. وهو بأسلوبه الوصفي يقدم حديثاً متنوعاً فيه جانب الاطلاع على المجلات والكتب المغربية والأجنبية، وجانب التعليق وغايته من ذلك هو إثارة الانتباه إلى

الواقع الذي كان يعيشه المغاربة آنذاك والدعوة إلى محاولة إيجاد وسائل إصلاح الأوضاع وتدارك مايمكن تداركه.

* التلميح إلى وجود تيار من المعارضين الرافضين لتلك الصراحة فهناك كما يبدو سعي إلى التعبير عن رفض ذلك الواقع والدفاع ولو بهذا الشكل البسيط عند فئة من المثقفين يمثلها المؤلف في هذا النموذج وهناك من كان يخالف هذا التوجه وربما يحاربه كما يفهم من مقدمة المؤلف بقوله : «فجمعت ذلك... خدمة للوطن الشريف، ونصحاً لأبنائه، وخضت في حجج هذا اللقيانوس وإن كان مخيفاً كثير الزوابع لكثرة الطاعنين على من يقول الحق، ويصف الأمر كما رءاه ولايراعي في الصدق لومة لائم». وإضافة إلى ماجاء في المقدمة يلاحظ القارىء أن هناك حرصاً على تقديم نظرة في كل فصول الكتاب وخاصة خلال تراجم الأعلام فهو يأسف للتأخر الحاصل في اكتساب العلوم الحديثة، ورفض ولوج المدارس ويربط بين هذا الوضع في المغرب وماكان يجري في البلاد الإسلامية الأخرى ويرى عموماً أن الاستبداد والتعصب وحب الانفراد بالسلطة هي التي أخرت هذه الدولة وأوصلتها إلى الدرجة القصوى من الانحطاط والتقسيم. كما أنه يعلق على سلوك بعض أرباب الوظائف الكبيرة الذين يعتقدون أنهم عينوا في مناصبهم لأجل استجلاب أموال الناس بأي شكل «كأن الله أقطعهم الأرض وجعل من فيها رقاً لهم». ويعود إلى مثل هذا النوع من الملاحظات عند حديثه عن عدم إصلاح عدد من مرافق القصبة أو دار الحكومة بطنجة ليقول بأن «الآفة من سكانها الذين لايعرفون مالهم وماعليهم من الحقوق فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً». وبذلك يمكن القول بأن تدوين المؤلف لهذه الزيارة التي دامت زهاء شهرين وشملت خمسة مراسي كان بهدف طرح عدد من القضايا الكبرى التي عاصرها وأحس بخطورتها على البلاد. كما يمكن اعتبار هذا اللون من الكتابة نوعاً من المسؤولية الملقاة على عاتق كل مثقف وفي هذا المنحى لن يكون الشيخ عبد الحفيظ الفاسي وحيداً في مثل هذه المحاولات بل إنه يعبر عن هموم الفئة الواعية من جيله بأسلوبه.